البـــــاب الأول

الحالة السياسية فى مصر

قبل سلطنة برقوق

obeikandl.com

obeikandl.com

١- عصر أولاد الناصر وأحفاده

بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م دخلت مصر فى طور جديد، أقل ما يوصف به أنه عهد ضعف وانحلال حيث تولى حكم مصر أولاد الناصر وأحفاده، ولم يكن لهم من الأمر شيء فى توجيه دفة الحكم فى البلاد، فصارت الأمور في مصر موكولة إلى كبار الأمراء، وأصبح السلاطين ألعوبة فى أيديهم، يعزلونهم أو يبقونهم على حسب ما يتراءى لهم، بل أصبح مصير كثير من هؤلاء السلاطين النفى أو القتل، وساعد على هذا صغر سن السلاطين خلال تلك الفترة.

ويكفى أن نعرف أن السلطان علاء الدين كُجُك، وهو من أولاد الناصر، تولى عرش مصر في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م ولم يكن يتجاوز من العمر سبع سنين[١].

وكذلك كان السلطان على بن شعبان، وهو من أحفاد الناصر، إذ بويع بالسلطنة في سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م وهو طفل لم يتجاوز السابعة من عمره[٢].

وليس أدل على ازدياد نفوذ الأمراء وتلاعبهم بالسلاطين الصغار، من أن الأمير قوصون أتابك السلطان كُجُك فى سنة ٧٤٢/ ١٣٤١م، كان يتصرف في الأمور التى تحتاج إلى توقيع من السلطان بأن يُمسك الأتابك قوصون القلم بيده مع يد السلطان كُجُك، ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير[٣].

كذلك مما يؤكد استهانة الأمراء بالسلطنة المملوكية في هذه الحِقْبَة من تاريخ مصر ومدى اشتداد سطوتهم، أن الأمراء اعتادوا إذا ما غضبوا على السلطان أن يخلعوه ويولوا غيره مكانه.

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٤٢، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٤ ص٤٦٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص١٨٨، المقدسى: نزهة الناظرين ورقة ٥٠.

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٤ ص٤٦٤ – ٤٦٥، ابن بهادر: فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر لوحة ٢٨٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٤٩١.

ولكن في عهد أحفاد الناصر حين اشتد الخلاف بين السلطان شعبان بن حسين وبين أتابكه يلبغا اليحياوى في سنة ٧٦٨هـ وانضم إلى شعبان طائفة من مماليك يلبغا، غضب يلبغا وولى الأمير آنوك بن حسين السلطنة، وبذلك أصبح على عرش مصر سلطانان[١].

على أن هذا التصرف من جانب يلبغا يؤكد استهانته بكل من حوله، ويعطينا صورة صادقة عن سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد في ذلك العهد، ويبدو ذلك واضحا من خلال العبارات التى ساقها المقريزى على لسان يلبغا عندما وَلّى الأمير آنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون سلطانا على مصر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م، فقد أمر يلبغا بإحضار كل من الخليفة إذ ذاك وهو المتوكل[٢] على الله محمد بن المعتضد، وآنوك بن حسين.

وطلب يلبغا من الخليفة تفويض آنوك بالسلطنة، فرفض الخليفة محتجا بأن السلطة لشعبان بن حسين، واستهان يلبغا برأى الخليفة وأقام هو شعار السلطنة لآنوك، وقال: «أنا أعينه وأؤيده، ومن له الشوكة غيرى»[٣].

ومن ثَمَّ التف حول كل سلطان أتباعه، وعمل كل فريق على تثبيت عرش سلطانه.

كذلك انصرف معظم السلاطين في ذلك العهد إلى المجون وانغمسوا في الترف، فبذلوا كثيرا من الأموال للحوارى، كما أنفقوا في لعبهم ولهوهم الأموال الطائلة، فكان السلطان حاجى الذى تولى عرش مصر في سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م منصرفا عن تدبير شئون الدولة باللعب بالحمام حتى جاوز فى ذلك الحد[٤]، وفى

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ القسم الأول ورقة ١٤٤.

(٢) هو المتوكل على الله أبو عبد الله محمد ابن المعتضد بالله، بويع بالخلافة بعد موت أبيه بعهد منه إليه سنة ٧٦٣هـ وامتدت خلافته خمسا وأربعين سنة بما تخللها من خلع وحبس، توفى سنة ٨٠٨هـ.

السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٥٠١، ٥٠٤.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص١٣٤.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٤٧، المقريزى: المقفى، ورقة ٣١٤.

الوقت الذى كانت تعانى فيه جماهير الشعب الجوع من جراء ما نزل بها من قحط، كان هو يبذل الأموال لجواريه، حتى إنه اختص واحدة منهن كانت حظية لسلطانين قبله فأفرط فى حبها وتقريبها[١]، و «بلغت قيمة العصبة التى على رأس حظيته اتفاق، زيادة على مائة ألف دينار مصرية»[٢].

وقد أدى شغفه باللهو إلى أخذ ما فى أيدى الناس من مال وعقار، فخربت بلاد كثيرة نتيجة لسوء تدبيره، كما أعيدت فى أيامه أنواع من الضرائب كانت قد ألغيت من قبل[٣].

وهكذا اشتد الانحلال الخلقى بين السلاطين فى تلك الفترة، وعلى الأخص عصر أحفاد الناصر، ويكفى أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ — ٧٦٤هـ = ١٣٦١ — ١٣٦٣م) وهو أول أحفاد الناصر فى السلطنة، كان «لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا[٤]» كما كان يدخل بين نساء الأمراء ويفسق بهن[٥].

ولا أدل على سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد في ذلك العهد، من أن بعض الأمراء استغلوا نفوذهم في زيادة ثروتهم، وصاروا يعيشون في صورة من الإسراف والبَذَخ تجاوزت الحد[٦].

ومما يؤكد مدى ما وصلت إليه الدولة من سوء الحالة في ذلك العهد، أن بعض موظفى الدولة كانوا يعتمدون على مساندة كبار الأمراء لهم، فاستغلوا نفوذهم فى مناصبهم لزيادة ثروتهم[٧].

---

(١) وليم موير: دولة المماليك في مصر ص ١٠٠.

(٢) المقريزى: المقفى ورقة ٣١٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٠ ص١٤٠ — ١٤١، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة ٧٤٨هـ.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٥٩٣.

(٥) ابن دقماق: الجوهر الثمين ص١٧٥ — ١٧٦، العينى: السيف المهند ص٢١٦، عقد الجمان جـ٢٤ القسم الأول ورقة ١٢٢، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٣ ص٣٥٦.

(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٢ ص٣٠٦، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٣ ص٤٥٢.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٠ ص٣٨١ — ٣٨٣.

هذا إلى أن الأمراء من ذوى النفوذ استأجروا البلاد التابعة لبيت المال بأجرة قليلة، الأمر الذى ترتب عليه قلة الواصل إلى خزائن الدولة من المال، مما زاد في تدهور الحالة الاقتصادية بالبلاد[١].

ولما عجزت ميزانية الدولة عن تلبية النفقات المطلوبة منها، ألقت بثقلها على التجار، واتبعت معهم أساليب غير مشروعة لتعويض الخزانة عما فقدته بسبب الانحلال الذى ران على نواحى الحياة الاقتصادية فكان أن لجأت الدولة إلى مصادرة التجار كما طرحت عليهم البضائع وأرغمتهم على شرائها بالأسعار التى تحددها[٢]، وكذلك استولت على الأموال الموقوفة على الأيتام[٣].

وإذا كانت البلاد في ذلك العهد قد تعرضت فى الداخل للاضطرابات والفتن نتيجة لاشتداد الصراع بين كبار الأمراء على السلطة، فقد تعرضت كذلك في شمالها وجنوبها لعمليات الغزو والقتل والنهب، مما عرض البلاد لحالة يُرثى لها من الضعف والفوضى.

ففى الشمال هاجم الصليبيون مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م ودمروا معالمها، وظلوا بها ثلاثة أيام يقتلون ويسلبون، ثم أقلعت سفنهم ومعها نحو خمسة آلاف أسير[٤].

وفى الجنوب هاجم أسوان سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م أولاد الكَنْز[٥]، فقتلوا، ونهبوا، وأسروا نساءها، وأحرقوا منازلها، و «فعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية»[٦].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٣٨.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص١٩٦.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٢٩١.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٢٣.
(٥) أولاد الكَنْز: أصلهم من ربيعة بن نزار وكانوا يتزلون اليمامة وقد هاجر كثير منهم إلى مصر سنة ٢٤٠هـ/ ٨٤٥م في خلافة المتوكل العباسى ونزلوا بأعالى الصعيد، ثم بسطوا نفوذهم على منطقة أسوان، ولما ظفر شيخهم أبو المكارم عبد الله سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله الفاطمى منحه هذا الخليفة لقب كَنْز الدولة، وصار صاحب هذا اللقب يسمى فيما بعد أمير أسوان، كما أصبحت ربيعة تعرف ببنى كَنْز، سرور: دولة بنى قلاوون ص١٥٥.
(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص ١٢٣.

كما تأثرت الحالة فى نيابات الشام بالاضطرابات والفتن السائدة فى مصر، فأعلن نواب الشام عصيانهم وخرجوا عن تبعيتهم للحكومة المركزية في القاهرة، ودخلوا معها في حرب طاحنة[١].

وفوق ذلك قامت قبائل العربان فى غرب الدلتا بالعديد من الثورات رغبة فى القبض على زمام السلطة، بعد أن وصلت البلاد إلى تلك الصورة من الفوضى والاضطرابات، وكان لامتناعهم عن دفع الضرائب وقيامهم بقطع الطرق وتعطيل التجارة والسفر فى تلك الحالة التى وصلت إليها البلاد أشد الأثر فى زيادة ضعف البلاد اقتصاديا[٢].

ومهما يكن من أمر فإن الانحلال الذى ران على نواحى الحياة خلال تلك الفترة، ساعد على انبعاث المنافسات الدموية بين الأمراء، الأمر الذى ترتب عليه ازدياد نفوذ طائفة المماليك البرجية أو الجراكسة ازديادا مضطردا، حتى تم لهم انتزاع السلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بزعامة واحد منهم هو برقوق، وهو الأمر الذى توضحه الدراسة التالية.

٢- ظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث:

يرجع تاريخ تكوين المماليك البرجية إلى أيام المنصور قلاوون وذلك حوالى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨١م[٣] حيث استجلب كثيرا منهم وأسكنهم في أبراج القلعة، فسموا لذلك البرجية، نسبة إلى هذه الأبراج التى أقامهم فيها[٤].

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٤٣ – ٤٤٤، العينى: عقد الجمان جـ٢٥ القسم الأول ورقة ٧٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٠ ص١٣٤.

(٢) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص٤٧٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٥٥٠.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١١٧.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٤، ٢٤١، السلوك جـ١ القسم الثالث ص٧٥٦، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٤ ص٤٤٢، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٣٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٣٦٣، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ٦٩.

وقد غلب على هذه الطائفة من المماليك العنصر الجركسى، وهى القبائل التى كانت تسكن فيما مضى القسم الشمالى الغربى من القوقاز، أى حوض نهر قوبان، وقسما من الشاطئ الشرقى للبحر الأسود، إلى أطراف بلاد الأبخاز جنوبا[١].

وقد فسر قلاوون اعتماده على هذه الطائفة من الجند ليكونوا على قوله: «كالأسوار والحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين»[٢].

وسار على نهجه ابنه السلطان الأشرف خليل، فأكثر من المماليك الجركس، حتى بلغت عدة مماليكه في مدة حكمه القصير (٦٨٩ — ٦٩٣هـ = ١٢٨٩ — ١٢٩٣م) حوالى ستة آلاف مملوك[٣].

على أن بداية نشاط البرجية على مسرح الحوادث أخذ يتشكل بعد مقتل أستاذهم السلطان خليل بن قلاوون فى سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م فقد دعاهم غضبهم لمقتله إلى الدخول فى دائرة الصراع والمنازعات التى كانت لا تهدأ لها ثائرة فى ذلك العصر[٤]، وظل نشاطهم بعد ذلك فى ازدياد حتى صاروا يشاركون في توجيه السياسة الداخلية للدولة[٥]، ومن ثم قويت شوكتهم «بديار مصر، وصارت لهم الحمايات الكبيرة، وتردد الناس إليهم فى الأشغال»[٦].

غير أنهم فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ — ٧٤١هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠م) تدخلوا تدخلا سافرا فى شئون السلطنة فتعرضوا لأعمال النفى والتشريد من جانب السلطان، وكان استمرار الناصر في الحكم لفترة طويلة في سلطنته الثالثة كفيلا بتصفية عناصر البرجية وتفككهم، حيث عمل من جانبه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مادة الجركس، وهذه المناطق جزء من الاتحاد السوفيتى في العصر الحاضر.

(٢) المقريزى: الواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٣٧٨.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٨ ص١٩.

(٥) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص٩٩، المنهل الصافى: جـ١ ص٦٣٧.

(٦) المقريزى: السلوك جـ١ القسم الثالث ص٨٧٥.

على كسر شوكتهم وإقصائهم بعيدًا عن مراكزهم القوية، ولذلك قلما تشير المصادر إليهم بعد وفاته.

على أن البرجية بعد ذلك عاودوا الظهور على مسرح الحوادث فنجحت محاولاتهم تارة وفشلت فى أحيان أخرى.

وكان طبيعيا أن يزداد نفوذ البرجية فى عهد أولاد الناصر وأحفاده وهو العهد الذى اتسم بالضعف والانحلال، على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن المماليك البرجية حين عاودوا الظهور في هذه المرة، أخذوا مكانهم على هيئة نشاط حزبى بعيدا عن العنصرية التى لازمتهم في نشاطهم من قبل، وذلك أن الأمير يلبغا العمرى أبرز أمراء الترك زمن السلطان حسن، كان قد ازداد نفوذه بعد أن جعله السلطان حسن أمير مجلسه في سنة ٧٥٩هـ، ومكنه ذلك من شراء أعداد كبيرة من المماليك من سائر العناصر بما فيهم الجراكسة، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف مملوك[١]، وانضوى الجراكسة تحت لواء اليلبغاوية وأصبح نشاطهم منسوبا إلى اليلبغاوية الذين صاروا قوة لا يستهان بها.

ولم يلبث اليلبغاوية أن انقسموا على أنفسهم في عهد السلطان شعبان بن حسين، مما أتاح له الفرصة للتخلص من استبداد يلبغا بقتله سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م[٢] الأمر الذى ترتب عليه تشتيت اليلبغاوية والتنكيل بهم قتلا ونفيا.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أن برقوق، الذى تسلطن فيما بعد، كان من بين جماعة اليلبغاوية الذين نفاهم السلطان إلى الكرك[٣].

وكان السلطان شعبان قد احتفظ بعدد من مماليك يلبغا ممن وثق فيهم، وتمكن كبيرهم فيما بعد وهو طشتمر الدوادار بحكم صلته بالسلطان أن يقنعه بعودتهم من المنفى، لينافس بهم السلطان الطوائف المملوكية الأخرى ضمانا لسلامة الدولة[٤].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٥ ص٢١٣.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٩ – ٤٠.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص١٥٥، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧١.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٦٢.

وهكذا اجتمع اليلبغاوية مرة أخرى، ولكنهم ما لبثوا أن عبروا عن سخطهم بتدبير مؤامرة قتلوا فيها السلطان شعبان سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[١]، ومن وراء هذه المؤامرة كان الأمير برقوق الجركسى اليلبغاوى، ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهوره على مسرح الحوادث.

٣- نشاط برقوق على مسرح الحوادث قبل اعتلائه عرش السلطنة:

ولد برقوق حوالى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م[٢]، ويرجع أصله إلى قبيلة كسا الجركسية[٣]، أما تاريخه بمصر فيرجع إلى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، وهى السنة التى أحضر فيها إلى القاهرة ضحبة بعض تجار الرقيق، فاشتراه الأمير يلبغا العمرى وجعله من جملة مماليكه[٤]، واستمر برقوق فى خدمة يلبغا إلى أن تعرض للنفى بعد مقتل يلبغا، وحبس بالكرك سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م[٥].

ثم استدعاه بعد ذلك السلطان شعبان بن حسين إلى القاهرة فى سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م مع طوائف اليلبغاوية الأخرى لينافس بهم مماليكه، وعندئذ أخذ برقوق فى التخطيط لتحقيق أطماعه العريضة[٦]، فكان مع الثائرين على السلطان شعبان فى سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[٧].

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن برقوق رغم ضآلة وظيفته وقت المؤامرة التى أطاحت بالأشرف شعبان وانتهت بقتله سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م فإنه ينسب إليه أنه أسهم بسهم وافر فى نجاح هذه المؤامرة[٨].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٧٦، العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ورقة ٢٠٦، المقدسى: نزهة الناظرين: ورقة ٤٩.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص ٤٧٦.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٢٣.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٧٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٢٣.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٧٢، ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٧.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٤١، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦.

(٧) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ورقة ٢٠٦.

(٨) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٧٦.

وكيفما كان الأمر فقد غدا برقوق بعد نجاحه فى الإطاحة بالأشرف شعبان يقف وراء الحركات التى من شأنها الإطاحة بمنافسيه، أو من يرى فيهم أنهم عقبة فى طريق ما يؤمله.

ولم يكن نجاحه في مخططاته راجعا إلى قوة بأسه وشجاعته بقدر ما يرجع إلى ذكائه ومقدرته في الوصول إلى هدفه عن طريق ضرب القوى المنافسة بعضها ببعض[١].

وكان طبيعيا بعد أن تقاسم اليلبغاوية الوظائف الكبرى في الدولة غداة الانقلاب الذى أطاح بالأشرف شعبان، أن يدب الخلاف بينهم نتيجة للتنافس حول الاستئثار بالسلطة، وأن يؤدى هذا التنافس إلى الصدام بين كبار الأمراء ما دام الجالس على عرش السلطنة صبيا فى السادسة من عمره.

وسُرعان ما دب الخلاف بين الأمير أينبك البدرى أمير آخور وبين الأمير قرطاى الطازى أتابك العساكر، وتمكن أينبك من القبض على منافسه ونفيه إلى صفد سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م[٢]، وبذلك خلا الجو لأينبك وحل محل قرطاى في منصب أتابك العساكر.

كما ارتقى برقوق إلى مرتبة أمير أربعين دفعة واحدة من الجندية دون أن يمر بإمرة عشرة، وذلك بفضل الأمير أينبك مكافأة له على مساعدته فى النزاع بينه وبين قرطاى[٣].

أخذ أينبك بعد ذلك يمهد الطريق لنفسه للوصول إلى السلطنة، فجعل سكنه بالإسطبل السلطانى، وبهذا يسيطر على الخيل والسلاح ويمسك بزمام الموقف[٤]،

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦، الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ص٢٠.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٦٦.

(٣) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٧، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٢٠٤.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣٠٨.

كما أسكن مماليكه بمدرستى السلطان حسن والسلطان شعبان، ليكونوا على مقربة من مقر إقامته، كذلك رقى ولديه إلى وظيفة إمرة ألف، وهى أعلى مراتب الأمراء فى الدولة، ليكونا عونا له عند تحقيق مآربه[١].

ومن ثم استفحل نفوذ هذا الأمير وصار يتصرف فى شئون الدولة كما شاء دون أن ينازعه في السلطة أحد.

وبدا لأينبك كأن الأمور تسير له على هذا النحو، حيث لم يحرك أمراء القاهرة ساكنا، والسلطان مسلوب السلطة مغلوب على أمره.

غير أن نواب البلاد الشامية وعلى رأسهم طشتمر نائب الشام، أعلنوا رفضهم لهذه السياسة وثاروا عليها، وقالوا: «لا نرضى بتحكم أينبك»[٢] واضطر أينبك إلى الخروج لقتالهم، واصطحب معه فى هذه الحملة الأمراء يلبغا الناصرى وبرقوق وبركة.

ووجد برقوق أن الفرصة مواتية للتخلص من أينبك، فرسم خطوط المؤامرة مع الأمير يلبغا الناصرى، وكان من نتيجتها أن ثار الجند على أينبك في الطريق سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م فولى هاربا[٣].

وبذلك تخلص برقوق من أينبك، كما ارتقى إلى رتبة أمير مائة، وهى أعلى درجات الإمارة فى الدولة[٤].

لم يبق أمام برقوق من منافس سوى الأميرين يلبغا الناصرى وبركة الجُوبانى، ومع أن الخطوة التالية لبرقوق تركزت فى ضرورة الوصول إلى منصب أتابك

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٣، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٥١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص١٥٥.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣١٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٥٢، أبو المحاسن النجوم الزاهرةجـ١١ ص٢٢٣.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٣، المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣١٤.

العساكر، وهى الوظيفة التى تمكن لصاحبها من السيطرة التامة على شئون الدولة، غير أنه رأى أن الظروف لم تتهيأ بعد لإقدامه على هذه الخطوة.

وبدا لبرقوق أن يتظاهر بالتعاون مع الأميرين يلبغا وبركة ليستعين بهما في تحقيق مآربه ريثما يرتب أموره ويتخلص منهما فى نهاية الأمر.

ومن ثم اتفق رأى الأمراء الثلاثة على إحضار قائد الثوار بالشام الأمير طشتمر الدوادار ليتولى منصب الأتابك في مصر، فحضر من الشام في ١٢ جمادى الأولى سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م[١].

غير أن برقوق وبركة لم يتركاه في هذا المنصب طويلا، وإنما ضيقا عليه الخناق «وأخذ برقوق في التعنت عليه حتى يخالفه فيجعل ذلك سببا لإثارة الفتنة»[٢].

ومن ثم وقع صدام بين الفريقين فى ذى الحجة من هذه السنة، وانتهى الأمر بالقبض على طشتمر الأتابك وحبسه بالإسكندرية[٣]، وفى نفس الوقت تآمر برقوق ضد يلبغا الناصرى وقبض عليه وأرسل به إلى الإسكندرية[٤].

وهكذا تمكن برقوق من الظفر بمنصب الأتابكية، ولم يسع السلطان على بن شعبان سوى الاعتراف بالأمر الواقع، وتعيين برقوق فى الوظيفة التى يسعى إليها.

وأصبح برقوق هو القائد العام للجيوش المملوكية وذلك في ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م[٥]، ومن ثم صار برقوق سيد الموقف، وصاحب السلطة الفعلية في الدولة[٦].

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أما أقوى منافسيه، وهو الأمير بركة الجُوبَانى، واتخذت هذه المنافسة منذ البداية صورة عنصرية واضحة، فقد استكثر كل منهما

---

(١) ابن حجر: أنباء الغمر جـ١ ص١٥٣.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص١٦٢ - ١٦٣.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٦٨، المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣٢٤ - ٣٢٥.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٢٢٠.

(٦) Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne Tome t. IV. (L'Egypte Arabe) p. 510.

من مماليك جنسه «استغلاظا لشوكتهما واكتنافا لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما»[١].

بل ذهب بهما الأمر إلى أبعد من ذلك، فقد أفرد كل منهما ديوانا لنفسه يتولى شراء المماليك من بنى جنسه والنفقة عليهم[٢].

ومن ثم ازداد نفوذ الأميرين، وسيطر كل منهما على شئون الدولة، بل أخذا «يبذلان الجاه لتابعهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة إليهما وإلى أبوابهما»[٣].

على أن مواجهة الأمير بركة والحالة هذه غير مأمونة النتائج، ومن ثم بدا للأمير برقوق أن يتظاهر بالتعاون مع الأمير بركة في بداية الأمر، ريثما يتخلص منه في النهاية، فكان أن أوعز إلى الأمير بركة بأن يتولى وظيفة ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م فعمل على انتزاع بعضها تقوية لأتباعه، مما أثار ضده علماء المسلمين يومئذ[٤].

كذلك رأى برقوق أنه لا بد له من قوى إضافية تسانده في الصدام الوشيك بينه وبين بركة، حتى يضمن رجحان كفته فى هذا الصراع.

وهذه القوى هى العسكرية الشعبية التى أدرك زعماء المماليك أهميتها، ومن ثم حرصوا أشد الحرص على التقرب للجماهير فى وقت الأزمات، والاستعانة بهم ضد خصومهم.

ولم يغفل برقوق هذه الناحية فقام باتخاذ الإجراءات التى ترضى الشعب، وأفرج عن بعض العامة الذين وضعهم بركة فى السجون، كما أصدر برقوق

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٦٧.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣٣٦.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص١٦٥، سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص١٤٩.

أوامره لوالى القاهرة بعدم التعرض للجماهير، بعد أن دب الرعب فى قلوبهم نتيجة تخوفهم من إجراءات بركة التعسفية، ومن ثم تعصب العامة لبرقوق وأحبوه[١].

وسرعان ما تأزم الموقف بين الأميرين، نتيجة لتدخل كل منهما فى اختصاصات الآخر ورأى برقوق أن يشرك القضاة فى هذا النـــزاع أملا فى إقصاء بركة عن التدخل فى أمور الدولة، وقد تمكن برقوق ـــ بواسطة الجهود التى بذلها القضاة ـــ من انتزاع الصلح من بركة[٢]، وتعهده بألا: «يتحدث فى شىء من أمور الدولة وأن يستقر برقوق متحدثا فى جميع الأمور بمفرده»[٣] وذلك فى المحرم سنة ٧٨٢هـــ/ ١٣٨٠م.

ويبدو أن الهدنة بين الفريقين كانت مؤقتة ريثما يتهيأ كل منهما لتقوية موقفه، وكان لا بد أن تصل العلاقة بينهما إلى حد المواجهة فى معركة فاصلة، فوقع الصدام بينهما فى ربيع الأول سنة ٧٨٢هـــ/ ١٣٨٠م، وتمكن برقوق بمساعدة العامة من انتزاع النصر، وانتهى الأمر بالقبض على بركة وحبسه بالإسكندرية[٤].

وعقب ذلك أجرى برقوق حركة تطهير فى الأجهزة الإدارية بالدولة، فقبض على عدد كبير من أتباع بركة وأقصاهم عن وظائفهم «فانقرضت دولة الترك بأسرها، وتتبعوا بالأخذ فقتلوا، ونفوا وسجنوا»[٥] وملأ هذه الوظائف بأتباعه، فصار أرباب الدولة كلهم جراكسة[٦] وفى تلك الأثناء توفى السلطان على بن الأشرف شعبان، وأقيم بعده أخوه حاجى بن شعبان فى سنة ٧٨٣هـــ/ ١٣٨١م، وهو صبى لم تتجاوز سنه السادسة، ولذلك عهد إلى برقوق بتدبير شئون الدولة،

---

(١) المقريزى: السلوك جـــ٣ القسم الأول ص٣٥٢ – ٣٥٣، ابن حجر: إنباء الغمر جـــ١ ص١٩١ – ١٩٢.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـــ٢ ورقة ١٧٦.

(٣) المقريزى: السلوك جـــ٣ القسم الأول ص ٣٨٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـــ١ ص٢١١، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـــ١ ورقة ٣٣٦.

(٥) المقريزى: السلوك جـــ٣ القسم الأول ص ٣٨٥.

(٦) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٨٢، ابن إياس: بدائع الزهور جـــ١ القسم الأول ص٢٦٤.

كما عهد إليه أيضًا بالوصاية على السلطان لصغر سنه، وأفتى العلماء يومئذ بذلك[١].

وخلال الفترة القصيرة التي جلس فيها حاجي على عرش مصر اهتم برقوق بترتيب الأمور في الداخل، وأخذ يتحبب إلى الجماهير ويتقرب إلى قلوبهم، فقام بالغاء بعض الضرائب التي تثقل كواهلهم، كما قام بتحسين النقد، مما أنعش الحالة الاقتصادية واستمال قلوب الجماهير نحوه[٢].

كذلك كان لانتصاره على التركمان الذين أغاروا على حلب سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، صدى كبير[٣]، حيث غدا برقوق هو الرجل القادر على توفير الرخاء للدولة في الداخل، والدفاع عنها ضد الهجمات الخارجية.

وفوق ذلك فقد تمكن برقوق ـ بما له من السلطة المطلقة في شئون الدولة ـ من إقصاء بعض منافسيه من الأمراء، كما وجه همته إلى تأييد البعض الآخر من الأمراء له.

وعندما تم له ذلك، دعا إلى عقد اجتماع يضم الخليفة والقضاة الأربع وسائر الأمراء، وأعلن «أن الأمور مضطربة لصغر سن السلطان... وأن الوقت محتاج إلى مَلِك عاقل... يقوم بأمور الناس، وينهض بأعباء الحروب»[٤].

فاستقر الرأى على خلع السلطان حاجي وتولية برقوق على عرش مصر، باعتباره الحاكم الفعلى للبلاد[٥].

وهكذا انتهت دولة المماليك البحرية بانتهاء أسرة بنى قلاوون، وانتقلت السلطة إلى دولة المماليك الجراكسة على يد برقوق.

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٧١ - ٤٧٢.
(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص١٥٠.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٣٥.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٧٤ - ٤٧٥.
(٥) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١، وليم موير: دولة المماليك في مصر ص١١٠.